٢
قصص الصحابة
خالد بن الوليد (رضى الله عنه)
عماد الشافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هَذه سُطورٌ مُضيئةٌ من حَياة بَعض الصَّحابة . . أعلامُ الهُدى، الذَّين بَذلوا أرْواحَهم الطَّاهرَة . ودماءَهُم الذَّكيةَ في سَبيل الله لنشر الإسلامِ . نجدُ في سيرتهم أروعَ قصَص الإخلاصِ والوفاءِ والفداءِ .

وقد حَدا بي الشَّوقُ للكتابة عنهم، كَتبتُ عن خالد بن الوليد، سَيفُ الله، وعن سَعد بن أبي وقَّاص القائدُ الفاتحُ، وعَن عَمرو بن العاص رمزُ الذَّكاء والدَّهاء، وسَلْمانَ الفارسي «الباحثُ عن الحقيقة»، وبلال لأولُ مُوذنٍ في الإسَلامِ، ومُصْعبٍ، وابي ذرٍّ، وحَمزةِ سيد الشهداء . .

أرجو أن أكونُ وفقتُ في عَرض هذه القصص بَبساطة وإيجاز حتى يجدَ فيها النَّاشئةُ المسلمونَ القُدوةَ الحسنةَ، وآملُ أنْ تزيدهُمُ حُبَّاً لدينهمِ، وتَمسُّكاً بعقيدتهم .

وما توفيقي إلا بالله..

عماد الشافعي

خالد بن الوليد (رضى الله عنه)

كَانتْ مكَّةُ سَاكنةَ سَاعَة الظهيرة، والرُّعاة يُريحونَ شياهَهُم وإبلَهُم تَحتَ ظلال الشَّجر، بَينْما تَحلَّق بعضُ الفتية فى سَاحَة المُصارعة يُشاهدونَ باهتمام الصِّراعَ بين خالد، وابن الخَطَّاب أقْوَى فتْيان قُريش. نَظرَ خالدُ إلَى الفَتى الطَّويل بحدَّة، وكان كُلٌّ منهما يَدورُ أمامَ الآخرُ ببطء وحَذَر، ويُفتشُ بعَينيه عنْ ثَغْرة للهُجوم: فكلاهُما مُصَارعٌ قويٌّ ومُراوغٌ مَاهرُ.

هَجَم خَالدُ على الفتى الطَّويل هَجمةً سَريعةً، وقَصَفهُ بقدمه، فَهوى الفَتى الطَّويل على الأرْض كما تَنْهالُ صخرةٌ كبيرةٌ من قمة جَبل. وسُمعتْ طَقْطَقة بين دَوىٍّ المُصفقينَ، ثُمَّ سَادَ الصَّمتُ لَحظةً.

مَرَّتْ دَقائقُ، وخَالدُ يحُدقُ بفزع فى وَجْه صَديقه الذى كان يَتألَّمُ، ويَمسكُ ساقَهُ التى كُسرتْ، ويَعْتذرُ عنْ قُوة الضَّربة التى لم يكنْ يَقْصدُها.

كانَ خالدُ بن الوليد وعُمرُ بن الخطَّاب صَديقين وزَعيمين للفتيْان فى مكَّةَ، وكانا ـ شأنَ فتيان مكَّةَ ـ يتدربَان على المُصارعة والمُبَارزة لإظهار الفُروسية والشَّجَاعة.

واتكأ ابنُ الخطاب على سَاعد خَالد بن الوليد حتى وصَلَ عُمرُ إلى دَاره. نَشأ خالدُ بن الوَليد فى أُسْرة ثَريَة، فأبوهُ الوليدُ بن المُغيرة كان

من رُوساءِ قُريشٍ وأصْحابِ النفُّوذِ والرأىِ فيها، وكان من أكثرِ أعْداء الإسْلام

وكانَ النَّاسُ حينئذ يَدخلونَ فى الدِّين الجدَيد خُفْيةً، وعندما دَخَل عُمر بن الخطَّاب وحَمزةُ بن عبد المُطلب فى الإسلامِ وجَدتْ قُريشُ نَفسها فى خَطَر.

وأخيراً استَقَّر رأىُ قُريشٍ على قَتْل مُحمد.

وفى مساء اليوم المُخطط لإغتياله، غادَرَ النبىُ منزلهُ وهاجَر إلى المدينه بصُحبةِ أبى بكرٍ الصَديقِ، وأصبحتْ المدينةُ مَوْئلاً للدين الجديدِ.

ماتَ الوليدُ بن المُغيرة وورثَ خالدُ عنه ثَروةً طائلةً جعلتهُ يعيشُ هَانئاً، مُتفَرغاً للتدريب علَى الفُروسية واستعمالِ السِّلاح حتى جَعَلتهُ القَبيلةُ قائداً لسلاحِ الفرسان.

وَوقعتْ غَزْوةُ بدر، وكانَ خالدُ وَقْتها مُسافراً مع قَافلة للتجارة، وانتصَر جيشُ المُسلمينَ قليلُ العدد على جَيْش المَشركينَ بعَد قتال عنيف لم يَدُمْ سوَى ساعةً أو ساعتَين. فرَّ بعدها جَيشُ قُريشَ من ميدانَ المعركة بشَكل فَوْضوىٌ، أُسرَ منهم سَبْعونَ وَقتل مثلهُم، وكان من بين قَتْلىَ المُشركينَ سَبعةُ عشرَ قَتيلاً من بنى مَخزُوم أبناءُ عَمٍّ وأبناءُ شقيقات خَالد، وأُسرَ وليدُ شقيقُ خالد.

وعادَ خالدُ بن الوليدِ من سَفرِه يحترقُ قلبُه غَيظاً وحُزْناً.

وعقدتْ قريشُ مُؤْتمراً لدراسة هَزيمتها أمامَ المُسلمينَ، حضرهُ زُعماءُ قريش، وكُلُ منهم فَقَد شَخصاً عزيزاً فى موقعة بدر. وتعهَّد الجميعُ علىَ أخْذ الثَّأر وعلى تجهيز حَمْلة قوية لشنِّ هجومٍ ضِدَّ مُحمد، وأنْتُخب بالإجماع أبو سُفيان قائداً لجَيش قُريش.

أعدَّ أبو سُفيان جَيْشاً هَائلاً للثأر من مُحمد، وجَهَّز النبىُ جيَشْاً من المُسلمين، والتقى الجَيْشان عند جَبلَ أُحد، وقَاتلَ المسلُمونَ قتالاً عَنيفاً مما جَعَل المُشركينَ يفَرون تاركينَ سلاحَهَم ومَتَاعهُم، وفرحَ المُسلمونَ بالنصر، ونَزلَ الرُّماةُ من فَوق الجَبلَ مُسْرعين لجمع الغنائم برغم تَحْذير النَّبى لهمُ بعدمِ تَرْك أماكنَهم.

وهُنا انكشفَ جَيشُ المُسلمينَ، ورأى خالدُ بن الوليد ذلكَ، وكانَ قائداً للفرسان، فانطلقَ بفرقته وصَعَد جبلَ أُحد وقَتلَ من بقىَ من الرُّماة علَى الجَبل، وراحُوا يُصوِّبونَ سهامهُم ورمَاحَهم إلى المسلمينَ حتىَ اضطربَ الجَيشُ وَتفَرَّق المُسلمونَ، وبسرعةٍ أُنقلبَ نصرُ المسلمينَ إلى هزيمة.

فَشَلتْ مكةُ فى القَضَاء على مُحمد ودَعْوته، وبدأ خالدُ بن الوَلَيد يُفكرُ فى أمر الدَّعوة الجدَيدة، وقدَ خَلَا إلى نَفسه يَوْماً وراحَ يُحدِّثُ نفسه: «واللَه لقدْ استقامَ الأَمْر للمُسلمينَ، وإن مُحمداً رسولٌ من عند الله.. فإلَى متى هذا العنادُ السَّخيفُ يا ابنَ الوَلَيد؟!

ما الذى يمنعكَ من الذَّهابِ إلى النبَّى وإعلانِ إسْلامَكَ؟»

ولَمْ يَطُلْ به التفكيرُ، فقد عَزمَ خالدُ بن الوليد على السَّفر إلى المدينة، فأخذَ درْعهُ وسلاحهُ وفَرسهُ وانطلق إلى المدينة، وفى الطَّريق قابلَ عُثْمانُ بنَ طَلْحة وعَمرو بن العَاصِ، وكانا مُتوجهين إلى المَدينة لنفس الغَاية.

دخل خالدُ أولاً، واستقبلهُ النبىُ بوجه طَلْق، وقالَ لهُ:

- قد كُنتُ أرى لكَ عَقْلاً رَجَوتُ ألاَّ يُسلمك إلاَّ إلى خير.

فقالَ خالدُ بعد أن شَهدَ أن لا إلا اللهُ، وأن محمداً رسول الله:

- «استغْفَر لى يا رسولَ الله كُلَّ ما أوْضعتُ فيه من صَدٍّ عن سَبيلِ الله.

فقال النبىُ: إن الإسلام يُمْحُ ما كانَ قَبلهُ.

قال خالدُ: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ لى.

فقال النبىُ: اللهَّم اغفر لخالد بن الوليد كُلَّ ما أوَضْعَ فيه من صَدٍّ عن سبيلك. وأعْطى النبىُ خالداً أرَضْاً ليبنى عليها دَارً، واستقَّر المُقامُ بخالدِ فى المدينة، وصَارَ من جُنْدِ رَسُول الله.

***

بَعثَ النبىُ ﷺ مبْعوثاً إلى أمير بصْرب الغَسَّانِّى وحَمَّلهُ رسالةً تدعُوه لاعتناق الإسلام. وعندما وَصلَ المبعوثُ إلى مُؤْتةَ اعترضهُ شُرَحْبيلُ بن عمرو من قبيلة غَسَّان وقَتَلهُ، وأثارَ هذا الإعتداء الشائنُ على المبَعُوثِ الدِّبلوماسىِّ لرَسول الله الغَضَب فى المدينة وأعَّد النبىُ

حَمْلةً لتأديب قبيلة غَسَّانَ، وخَرجَ ثلاثةُ آلاف مُقاتل من المسلمينَ يقودهمُ زيدُ بنَ حارثةَ، وكانَ خالد بن الوليد جُنْدياً فى هذا الجيش.

وجَهَّز الرُّومُ والغَساسنةَ جَيْشاً هَائلاً قُوامهُ مائتى ألْف مُقاتل، والْتقى الجَيشْان عَند قَرية مُؤْتةَ، من قُرى البْلقاء.

ورَدَّد المسلمونَ كلمات تُثيرُ الحماس وتُلهبُ المشَاعَر نحو النَّصر، أو الشَّهادة فى سَبيل الله. وبدأتْ المعركةُ والْتَحم الجَيْشان، فقاتل زَيدُ بن حارثةَ براية رسول الله حتى قُتلَ، ثُمَّ أخَذ الرايةَ جَعفرُ بن أبى طالب فقاتلَ بها حتى قُتلَ. وبدأت الفَوضى تَدبُّ فى صُفوف المُسلمينَ، فجيشُ العدوِّ هائلُ العدد، وأخَذ الرايةَ بُسَرعة عبدُ الله بن رَواحة وصاحَ فى المُسلمينَ يُعيدُ تَنْظيمهم، وقاتلَ باستماتة حتى قُتلَ أيضاً.

كان الرُّومُ والغَساسنةَ يَعْجبوُن من حَماس وشجاعة المسُلمينَ، وأخَذ الرَّايةَ ثَابتُ بن أرْقم وصَاحَ: يا مَعْشَر المُسَلمينَ اصْطَلحوا على رَجُل منكم لقيادة الجَيَش.

قالوا: أنتَ.

قال: ما أنا بفاعل. فاصْطَلح النَّاسُ على خَالد بن الوليد فأخذَ الرَّايةَ وتولَّى القيادةَ. كانَ المَوقفُ خَطراً ويُوشكُ أنَ يُؤدى إلى هَزيمة تامَّة للمُسلمين.

وبمهارة أعادَ خالدُ تَنْظيمَ الجَيشِ وهاجَم بعُنف حتى قُتلَ القائدُ

الغَسَّانى على يَد «قُطْبة» قائدُ مَيْمنة جَيْش المسلمين، فحدثتْ بعضُ الفَوضْى فى صفُوف العَدوّ، وأنسحبَ جيشُ الغَسَاسنة قليلاً، وتَراجعَ المسُلمونَ قَليلاً، وكلا الجَيْشين كان يلتَمسُ الرَّاحةَ وإعادةَ تنظيمِ صفُوفه.

وأدركَ خالدُ بن الوليد خَطورةَ مُواصلة القتال ومُجابهة جَيش الرُّوم الهائل العدد، وآثَر الإنسحابَ الوقائىّ بجَيشَ المُسلمين. وأعدَّ خُطةً للإنسحاب ليَحُول دُونَ هلاكه.

وفى المساء سَحبَ خالدُ جيشَهُ من مُؤْتة وأبْقى السَّاقةَ (مؤخرةُ الجَيْش) لتحمَى انسحابهُ، وجَعَلهم يُحْدثون بطبولهم ضَوْضاءَ، ويُثيرونَ بخيولهم الغُبارَ، ليُوهمَ الأعداءَ أن مَدَداً قوياً وصلَ إلى المُسلمينَ فى الليل. ونجحتْ الخُطةُ!.

وفى الصباح كان جيشُ المُسلمينَ يَسيرُ فى الصَّحراء مُتجهاً نحو المدينة، وخالدُ فى المؤخرة يَحْمى بفرقةٍ من الخيَّالة جيشَهُ من مُطاردة الرُّوم.

وعندما وَصلَ الجيشُ إلى مَشارف المدينة، كانَ النَّبىُ فى استقبالهم وكان المُسلمونَ فى حالة نَفسية سَيئة، وعندما عَلم النبىُ بأحداث المعركة التى كُسرَ فيها تسعةُ سُيوف لخَالد فى مُبارزات عنيفة، حَزنَ لموت المُسلمينَ وَهمُ من خيرة الصَّحابة، وأثنى على براعة خالد فى إدارةِ المعركة وقالَ مُطمئناً النَّاسَ:

«أخذَ الرايَة زيدُ بن حارثة فقاتل بها حتى قُتلَ شَهيداً، ثُمَّ أخذها جَعْفرُ فقاتلَ بها حتى قُتلَ شهيداً، ثُمَّ أخذها عبدُ الله بن رَواحة فقاتلَ بها حتى قُتلَ شَهيداً، ثمَّ أخذ الرَّايةَ سيفٌ من سُيوف الله، ففتحَ اللهُ على يديه».

وكان هذا اللَّقبُ أعْظمَ وسامٍ يحصلُ عليه خالدُ بن الوليد «سيفُ الله».

***

مضَى سيفُ الله «خالدُ بن الوليد» جُنْدياً مُخْلصاً فى جَيش المُسلمينَ بقيادة النبىِّ ﷺ، يَنْتقلُ من نصرٍ إلى نَصْرٍ، ويَتعلمُ من النبىِّ.

ففى فتح مكةَ كان خالدُ على مَيْمنة جيش النبَّى، وتصدَّى للمُشركينَ يومَ حُنَين وقَتَل منهم عَدداً، وبعثهُ النبى فى ثلاثين من أصحابه لتحطيم الأَصْنام وعندما توفى النبى ﷺ، ولَحَق بالرَّفيق الأعْلى ارتدَّ بعضُ العرب عن الإسلام، وامتنعَ بعضهمُ عن دَفْع الزكاة، فتصدَّى لَهمُ أبو بكَر خليفُه رسولَ الله بقيادة خالد.

وكان لابُدَّ من إخماد هذه الفتنة التى أضْرمها المرتُدونَ، وكانتْ مُجابهةُ مُسيلمة الكذَاب الذى ادَّعَى النُّبوة من أكبر المعَارك.

والتقى جَيْشُ خالد بن الوليد بجيش مُسيلمة الكذَّاب فى عَقْرباءَ، ودارَ قتالٌ رَهيبٌ سَقطَ فيه شُهداءُ من المُسلمينَ.

ورأى خالدُ جنودَهُ يتساقطونَ تحتُ سُيوف الأعداء، وأن المعركةَ تكادُ تُحسمُ لصالح الكَافرينَ، وكان المسُلمونَ يقاتَلونَ فى دفاع مُسْتميت فأرادَ خالدُ أن يعرفَ نقاطَ الضَّعف فى جيشه الذى تَرَنَّحَ من هَوْل المُفاجأة، فأعاد بُسرعَة تنسيقَ الجُنَد وصاح: امْتَازوا أيها المُسلمونَ لنرى اليومَ بَلاءَ كُل حَىٍّ.

فمضَى كلُ فريق تحتَ راية.. الأنصارُ تحتَ راية، والمُهاجرونَ تحتَ راية، وكُل قبيلة تحتَ رايَة. وهُنا اشتعلتْ الأنفسُ حَماساً وأصبَح كَلُ فريق يقاتلُ باستماتة طَلباً للنَّصر، أو نَيْلاً للشَّهادة.

وأخذ خالدُ يصيح مُكَّبراً يلُهبَ المَشاعَر، ويُقوى العَزائمَ، وتحوَّلتْ دَفَّةُ المعركة لصالح المُسلمينَ، وتسَاقَط الكَافرونَ بالمئات، وهَرب مُسيلمةُ من مَيدانَ المعركة إلى مكان يُسمى حديقةُ الموتَ. وأغلقوا عليهم البابَ.

وحمَل المسلمونَ البَّراءَ بن مالك فاقْتحمَ عليهمُ البابَ حتى فَتحهُ للمُسلمين فدخلُ المُسلمونَ المدينةَ كَالسَّيل العَرم يَحصُدونَ رُؤسَ الكَافرينَ حَصداً، فى قتال عنيف قُتلَ فيه مُسيلمةَ.

وأخمدتْ نار الفتنة فى الجَزيرة العربية بعد انتصارِ المُسلمينَ فى حروبِ الرِّدة.

كانَ خالدُ بن الوليد يُعسكرُ بجيشه فى اليمامة للرَّاحة بعد المعارك الدَّامية، عندما جاءهُ البريدُ من الخليفة أبى بكرَ الصَّديق: «سِرْ إلى

العراق حتى تَدْخلها وقاتلْ أهْل فَارس، وليكُنْ هَدَفُكَ الحيرةَ».

فأرسلَ خالدُ إلى الخليفة يطلبُ منهُ المدَدَ، فقد ترك الآلاف من الجُندْ الجَيشَ وعادوا إلى المدينة وما حَوْلها بعد المعركة.

وعندما وصَلَ كتابُ خالد إلى الخليفة، أرسلَ إلى شاب شُجاع يُدْعى «القْعقاعُ بن عمرو» لتعزيز جَيْش خالد، كما أرسل إلَى المُثنىَّ ومَذْعور بن عُدى يأمرهُما بتجميع المُحاربين تحَت إمْرة خالد.

وقَبْلَ أن ينطلق خالدُ بجيشه إلى العراق، أرْسلَ إلى وُلاة كسْرى: «أما بعدُ.. فأسَلمْ تَسْلم، أو اعْتقد لنفسك ولقومكَ الذّمةَ وأقْرر بالجزية، وإلا فلاَ تَلُومنَّ إلا نفسكَ. فقد جئتكُ بقوم يُحبونَ المَوْتَ كما تُحبونَ الحياة».

وقرأ هُرْمز ـ الحاكمُ الفَارسىُّ ـ كتابَ خالد بسخرية وغضَب، وأبلغَ الإمبراطور الفارسىَّ «أرْدشير» بتهديد خَالد، فصمَّمَ على أن يُلقّنَ هَؤلاء العَرب دَرْساً لا يَنْسوهُ.

أدْركَ خالدُ بعقليته الحَربية قُدرةَ جَيشْ الفُرس وتَسلُّحه، فَناورَ فى الصَّحراء قليلاً حتى أجْهدَ جيشَ الفرسُ. والتقَى الجيشَان عند بلدة تُدْعى «كاظمةَ»، وبدأتْ المعركةُ بمبارزة بين القائدين خالَد وهُرمْزَ على الأرْض الفَاصلة بين الجَيْشين، وكان هُرْمزُ قد دَبَّر مُؤامرةً، وهى أن يُنادى على أرْبعة رجال فى اللَّحظة الحاسمة لاغتيال خَالد.

وعندما تصارع القائدان وجَد خالدُ نفسهُ ومعه هُرمُز مُحاطينَ بعدة رجال أشدَّاءَ من الفُرْسِ، وبُسرعة أدَارَ خالدُ خَصْمهُ تُجاهَهم كدرعَ يَحْتمى به، وفى هذه اللحظة لمحَ القعقاعُ انْدفاعَ الرِّجال الأربعة نحو المتُصارعينَ فأدركَ غَدْرَ القائدَ الفارسىُّ، فانطلقَ كالسَّهمِ وهجمَ على رجال هُرمز فى اللحظة المُناسبة وقَتَلهم جَميعاً.

وانفردَ خالدُ بهرمز فقتلهُ، ثُمَّ أمر الجيشَ بالهُجوم. فانطلقَ المُسلمونَ بحماس شديد للثَّأر من الفُرس الذين حَاولوا الغَدْر بخالد. وفَرَّ الفُرسُ من أرض المعركة بينما وَقَعَ الجنودُ المرَبوطينَ بالسَّلاسل فَريسةَ للمُسلمينَ. وانتهتْ المَعركةُ بنصرٍ شَاملٍ للمُسلمين، وكانتْ بدايةَ قوية لعدة فُتوحات غالية.

أراحَ خالدُ جيشهُ بضْعةَ أيام ثُمَّ انطلقَ يدُكُّ حُصونَ الفُرس فى النَّجف وأُلَّيس ودَوْمة الجندْل والمزار حتى وَصلَ إلى الحيرة.

واتَّخذ خالدُ بن الوليد مدينةَ الحيرةَ مَقراً لقيادته، وأرسلَ إلى الخليفة فى المدينةَ يُخبره بالانتصارات.

فَسُرَّ أبو بكر الصديق وقال لأصحابه: «عَجَزتَ النسَّاءُ أن يَلدنَ مثلَ خالد»

وصَلَ البريدُ من الخليفة إلى خالد بن الوليد جاء فيها: «سرْ حتى تصلَ جموعَ المُسلمينَ فى بلاد الشَّام، فهمُ فى حالة من القلق، وإننى أُعيِّنُكَ قائداً على جُيوشِ المُسلمينَ، وآمركَ أن تقاتلَ الرُّومَ».

وقَسَّم خالدُ بن الوليد جَيشهُ إلى قسْمين، وسلَّم نصْفهُ إلى المُثَنى بن حَارثةَ وتركهُ على العراقَ، وعقَد اجتماعاً لقادة جَيْشه.

علم خالدُ أن الخليفة قد أرسلَ جُيوشاً لفتح الرومُ بقيادة أبو عُبيدةَ بن الجرَّاح، وعُمرو بن العاصِ، وشُرَحْبيلُ بن حَنسةَ، ومُعاوية بن أبى سُفيان.

وأرادَ امبراطورُ الرُّوم مُصالحَةَ المُسلمينَ وعدمَ الدُّخول معهم فى حُروب خاسرة أُسْوةً بما حدثَ فى العراق. لكن وزراءه وقوَّادهُ أصرُّوا على القتال وأعَدُّوا للقتالِ جَيْشاً هائلاً قُوامه أكثرَ من مائتى ألف مُقاتل.

وعندما أرسلَ قادةُ المُسلمونَ إلى الخيفةِ بالموقف قالَ: «والله لأشْفينَّ وَسَاوسهم بخالد»

وكانَ على خالد أن يتحرَّك بأقصى سُرعة إلى الشَّامِ لتولىِّ قيادة قُوات المُسلمين هُناكَ فى منطقة بصْرى والجابيةً.

قالَ خالدُ لقواده: إن الموقفَ فى الشام خطرُ والروم قد عَبَّأ جُيوشَهُ ورسالة الخَليفة واضحةُ.. أىْ الذَّهابُ إلى هُناكَ بأقصى سُرعة، وهُناكَ طريقان مَعروفان، الأولُ: الطريقُ الجنوبى وهو طريقُ القوافَل يمرُّ عبْرَ دَوْمة الجَنْدل. وهو طريُق آمنٌ، ويُوجدُ على امتداده مياهٌ كثيرةٌ لكنهُ أطولُ الطُرق. والطريقُ الثانى هو الطَّريقُ الشمالى الذى يمتدُّ عَبْر نهر الفُرات ويؤدى إلى شمال شَرْقِ الشَّام لكنه يَبْعُد

عن الجيوش المُسلمة، وهو عُرْضةُ لغارات من الحاميات الرومانية. ثم قال: كيفَ لى بطريق أخرجُ فيه من وراء جَمُوعِ الرُّوم؟

ردَّ بعضَ القادة: لا نعرفُ إلا طَريقاً لا يَحملُ الجيوشَ، يأخُذه الراكبُ فإيَّاكَ أن تُغَرِر بالمُسلمينَ!

طرحَ خالدُ سُؤالهُ ثانياً، فأجابُه رافعُ بن عُميرة، وكانَ مُحارباً رائعاً ذائعَ الصَيتِ، وأوضَح انهُ طريقُ صَحراوىّ يَمُرُّ عَبْرَ أرضِ سماوة، ويمرُّ فى صحراءَ جَرْداءَ ليس فيها ماءُ يسلكها الراكبُ فى خمس لَيالٍ مع خُطُورتها.

وهَزَّ القادةُ رُؤوسهم بعدمِ المُوافقة!

ونظرَ إليهم خالدُ وقالَ بصوتَ هادئ: لابُدَّ من اجتياز هذا الطَّريق. ثم قال: لا تختلفوا ولا تضعفوا واعلموا أن المعونة تأتى على قَدْرِ النّية، والأجرَ على قَدْرِ الحسْبة.

وأثارتْ كلمتهُ حَماسَ القادةِ فقالوا فى عَزْم وثقة: «أنتَ رَجلٌ قد جَمَع اللهُ لك الخَيرَ»

وبدأ الجيشُ يستعدُّ للمسير إلى الشَّامِ فى حَماسٍ مُنْقطع النَّظير، ثمَّ انْطلقَ خالدُ يطوى الصحراءَ طيَّاً فى طريق لا يعرفهُ سوى رجلٌ واحدٌ هو «رافعُ بن عُميرة»، وبجيشٍ قُوامة تسعةُ آلافَ رجلٍ فى أروعِ مغامرةٍ فى التَّاريخ العَسكرى.

ووصلَ خالدُ إلى الشَّام، وتمَّ الإستيلاءُ على بصْرى، ومن بَعْدها التقتْ حُشودُ المُسلمين مع حُشود الرُّوم فى أجْنادين، ودارتْ أكبرُ معارك الشَّام، وكان نَصْرُ المُسلمينَ بقيادة خالد بن الوليد فى معركة أجنادينَ نَصْراً تاماً.

وعندمَا وصَلتْ أنْبَاءُ الهَزيمة إلى هرقَل امبراطورُ الرُّوم شَعُرَ بالكارثة وسَافر إلى أنطاكيةَ، وأمرَ قُواتاً أُخرى بالتحرك نحوَ دمشْقَ لتعزيز هذه المَدينة قبلَ حصارها.

وفى دمشق دارتْ معاركُ هائلةٌ، وانتصر المسلمونَ على الرُّوم، وبعد استقرار المُسلمينَ فى دمشقَ، أنتحَى أبو عُبيدةَ بن الجراحَ بخالد بن الوليد وسَلَّمُه رسالةً وصلتْ إليه ليْقرأها. كانتْ من أمير المؤُمنينَ عُمر بن الخطاب، بعد أن ماتَ أبو بكر الصديق خليفةُ المسلمين وفيها أن خالدَ أصبحَ مَعْفياً من الخدمة، وأصبَح أبو عُبيدة قائداً عاماً.

وسارَ خالدَ إلى خَيْمته حَزيناً، يبكى على فراق أبى بكر.. ويقول بأسى: رحمَ اللهُ أبا بكر.. لو كان حياً ما عُزلتُ من قيادتى.

وامْتثلَ خالدُ لأمر الخليفة الجديد، وعَمل جُندياً فى جيش المُسلمين تحتَ إمرة أبو عُبيدةَ بن الجراح، وخاضَ معاركَ حِمْصِ

وقَنْسرين، وعلى نهر اليَرموك دارتْ معركةٌ حاسمةٌ فى تاريخ المُسلمين كان فيها خالدُ قائداً لإحدى الكتائب، وبدأتْ المعركةُ به للمبارزة، فخرجَ خالدُ بفرسه، وخَرجَ قائدُ رومانىُ يُدعى «جرْجةَ»، والتقى الفارسان فى الأرضْ الفاصلة بين الجيَشْين. وكان جرْجةُ مُعْجبًا ببطولات خالد، فلم يُشْهر سَيْفه وإنما راحَ يسألُ خالداً عن سَبب كُنْيته «سَيْفُ الله» وخالدُ يجيبه: «دعا لى رسولُ الله وقال لى: أنتَ سيفٌ من سُيوف الله فهكذا سُميتُ سيفُ الله.

فسألهُ: إلامَ تَدْعُونَ؟ قال خالدُ: إلى توحيد الله وإلى الإسلام. وصاح القائد الرُّومانىُّ: عَلِّمنى الإسلامَ يا خالد.

فأخذهُ خالدُ إلى خيمته وعلَّمهُ الإسلامَ، فأسلَم جرْجةَ وصلَّى لله ركَعْتين، ولم يصل سواهُما، فقد قاتلَ بَعْدهُما جرجة فى صُفوف المُسلمين حتى نَالَ الشَّهادَة فى سَبيل الله.

وانتصرَ المُسلمونَ فى معركة اليَرمْوك. وكانتْ أُمْنيةُ خالد أن ينَالَ الشَّهادة فى سبيل الله فى هذه المعركة، وفى كُلِّ معركة خَاضَها.

وعندما اشْتَّد على خالد المرضُ عاد إلى المدينة حزينًا، وأخذَ يُردّدُ فى حَسْرة طاغية وهو على فراشِ المُوْت:

«لقد شهدتُ قُرابةَ مائة زَحْف، وما فى جَسدى مَوْضعُ إلا وفيه ضَربةُ سَيْف، أو طعنةُ رُمْح أو رَمْيـة سَهْم، ثم ها أنذا أموتَ على فراشى حَتْفَ أنفى . . فلا نامتْ أعينُ الجُبناء!».

وراحَ يُمْلى وَصَّيـةَ على من بجـواره، وهى أن يُعْطَى فَـرسُـه وسلاحُهُ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولم يكُنْ يَمْلكُ من الدُنيا غَيْرهُما.

وعندما ماتَ خالدُ بكاهُ أميرُ المؤمنين عُمر بن الخطاب، وبكاهُ المُسلمونَ جَميعهمُ، حتى فَرسُهُ وقَفَ أمامَ قَبْره صَامتاً حَزيناً، وعَيناهُ تَتَحَدَّرُ منْهما الدُّموعُ.

تمت بحمد الله